

## بنية التأليف التاريخي العربي وسلطة الماضي

د. سماحي بوحجرة\*

التأليف التاريخي العربي، من أكثر النشاطات المعرفية تجذرا في الحضارة العربية الإسلامية، وأكثره تعبيرا عن خصوصياتها، فالتاريخ، وكما سيتبين من خلال مسار هذا التحليل، يشكل نموذجا تتكثف على مستواه خصوصيات النشاط المعرفي لممارسي المعرفة في المجال لإسلامي، وذلك لأن طبيعة العلوم العربية الإسلامية كعلوم مرتبطة بالنص، ورغم تمايز العلوم المشكلة لها إلا أنها شكلت نسقا أو نظاما، يقوم على علاقة التكامل والتساند الوظيفي بين المعارف المكونة لها بحيث كان هناك تبادل في الآليات والمناهج والنتائج مما جعل الحدود غير واضحة بين معرفة وأخرى، والممارسة المعرفية كانت تقتضي الموسوعية ويؤدي اتقان فرع من هذه الفروع الى القابلية الى تعلم الفروع الأخرى واتقانها. ومن ثم علاقة التضافر بين التأليف التاريخي وعلوم أخرى كعلم الحديث وعلوم القرآن والفقه والنحو... إلا أن التاريخ ونظرا لطبيعة موضوعه شكل خطابا مارست فيه موضوعات مثل السياسة تأثيرها بكل وضوح، كما شكل المجال الذي تداخل فيه العقل والخيال، من أجل ذلك كان التاريخ ولا يزال ميدان معركة بين القوى المتصارعة. لفحص هذا التداخل والتمايز في نفس الوقت لعلم التاريخ في علاقته بالنظام المعرفي لحضارة الإسلام ولتقييم قيمة هذا العلم وعلاقته برهانات السلطة وتوجهات المجتمع العربي الإسلامي، تطمح هذه المساهمة إلى مسائلة القضايا التالية:

- موقع وقيمة التأليف التاريخي في الاهتمام المعرفي في الحضارة العربية الإسلامية.
  - تطور التأليف التاريخي العربي واندماج أصنافه في التاريخ العام.
  - التأليف التاريخي وتوجهات السلطة.
  - الخطاب التاريخي وسلطة الماضي.
- الاهتمام بالتاريخ كخبر ورواية متجذر في الحياة الفكرية قبل الإسلام لتضافر طبيعة مادة التاريخ -

\* أستاذ بجامعة مستغانم.

**Abstract:** The aim of this paper is to present the status and the evolution of historical writing through the different periods of the Islamic civilization until the stage of maturity found in the writing of Tabari and Beladhrin in the eighth century. We can distinguish between three stages in the evolution of historical knowledge during the Arabic civilization; in the early Islam the main issue was to write up different narrations and hadith from different resources, in the second period some monographies were established about some families and dynasties. Finally in the last period was the emergence of history as a discipline with the first historians such as Tabari and Beladhrin. In this paper we emphasize the role of the Abbasids in promoting; the historical writing as a source of political and religious legitimacy against the opponents during the ninth century.

**Keywords:** History, historical writing, power, Islamic sciences, Monographies, Tabari, Beladhrin, Abbaside

الأيام، أخبار الملوك والأمم- مع طبيعة الاجتماع العربي وبيئته، يؤكد هذا المنحى ما ذكره «الشهرستاني» من عناية للعرب بعلوم ثلاث «أعلم أن العرب في الجاهلية، كانت على ثلاث أنواع من العلوم: أحدها علم الأنساب والتواريخ والأديان»<sup>(1)</sup>، و«الشاطبي» في «موافقاته» وفي معرض تفسيره لأمية الشريعة وكيف أن القرآن تبعاً لذلك لا يذكر من العلوم إلا تلك التي عرفتها العرب، وأن لتلك العلوم علاقة بالشريعة. يذكر من بين تلك العلوم التاريخ «...ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية...»<sup>(2)</sup> ستتضاعف أهمية التاريخ في الإسلام لتبلغ الذروة في القرون: الثاني، الثالث والرابع، حيث أصبح التأليف فيه يشكل أبرز الممارسات المعرفية في اسلام العصر الوسيط، لدرجة يذهب معها عبد الله العروي إلى اعتبار «تأليف التاريخ الإسلامي من إبداع العرب... ليس التاريخ الإسلامي نقلاً أو اقتباساً أو استعارة من الغير»<sup>(3)</sup> والرهان في هذا المقال هو إظهار هؤلاء المؤلفين للتاريخ الإسلامي ولاحقاً لتاريخ الشعوب المؤلفة للإمبراطورية الإسلامية، على أنهم ممارسون لمعرفة تعبر عن «وعي جماعي في طور التشكل والاندماج الاجتماعي -السياسي- الثقافي»<sup>(4)</sup> ومن ثم يغدو الممارس للمعرفة في حقل التاريخ فاعل مندمج في سياق حضاري واجتماعي تحركه إشكاليات وهموم المجتمع، فاعل له موقع، مكانة ودور، له مقاصد وأهداف تندرج ضمن توجهات المجتمع في تلك الفترة، إنه «مثقّف» بالمعنى المعاصر، أي باحث عن المعنى (العبرة) وباحث في مشكلة الشريعة وإندماج الجماعات المشكلة للأمة ووحدها ومصيرها، بلغة موجزة التأليف في التاريخ الإسلامي متمفصل تماماً مع احتياجات المجتمع وتوجهاته، وطرائف التأليف وتطورها، وإندماج أصنافه: -الأنساب، الأخبار، المغازي والسير، الفتوح، تاريخ الخلفاء- ف تاريخ جامع وعام، مع «أمير المؤرخين» الطبري (ت309هـ) ومع البلاذري (ت279هـ) يعكس تماماً تطور المجتمع الإسلامي وتوجهاته الإدماجية، خاصة في جانبه السياسي - تطور الصراع بين الجماعات السياسية كالشيعة والدولة المركزية- وفي جانبه المعرفي - ظهور الفرق، الترجمة، تأثير الفلسفة اليونانية-، وهذا العرض يحاول أن يبين هذه العلاقة التطورية وفي نفس الوقت البحث عن الثابت فيها.

لا نعرف على وجه الدقة المعايير التي كانت تعتمد كمعيار لإعتبار حدث ما موضوعاً للتاريخ أي خبراً جديراً بأن يروى ثم يكتب، ولكن من المؤكد أن الأمر متصل بالاطر الاجتماعية للمعرفة في المجتمع العربي قبل الإسلام، حيث القبيلة كمرجعية وما يتصل بها من مصالح من شأنها جعل القبيلة تستمر وتؤمن وظائفها لذا فمسائل كالنسب ومؤسسة الشرف والثأر والصراع على مصادر الرزق النادرة، هي ما كانت تحدد قيمة الحدث باعتباره مادة للرواية ثم للتاريخ، لذلك كانت الأنساب وأيام العرب المادة الأولية للتاريخ العربي، ثم ما أحدثه الدين من انقلاب جذري في حياة العرب حيث ستصبح السيرة والمغازي ثم الفتوحات، ثم تاريخ السلطة، -تاريخ الخلفاء-، هي مادة الرواية والتأريخ العربيين الإسلاميين، وعليه ستتطور الكتابة التاريخية من الصيغة الشفهية للخبر، ثم جمع تلك الروايات عن طريق مجمعين محترفين،

1 الشهرستاني، الملل والنحل، تصحيح وتعليق أحمد فهمي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، (ب ت) ج3، ص 662.

2 الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، شرح وتخرير الشيخ عبد الله الدراز وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، (ب.ت)، ج2، ص 53.

3 العروي، عبد الله، العرب والفكر التاريخي، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط4، 1998، ص 79.

4 المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.

ليسلموا مادتهم للمؤرخ الذي سيرتب وينظم وينتقي، ويبعد، ويملاً الثغرات، أي مرحلة بناء الحادثة التاريخية، و«هكذا، غالباً ما كانت المرحلة الأولى للكتابة التاريخية عبارة عن تقارير شفاهية لتلك الأخبار والروايات، بينما كانت المرحلة الثانية تنصب على جمع هذه الأخبار في حين أن المرحلة الثالثة وهي مرحلة التطور التي كانت تتصف بالعقلانية ومواجهة التحديات، كانت تعنى بتنظيم الأخبار وجعلها متناسقة ومثبتة أو على الأقل ذات طابع روائي سهل الفهم والإدراك»<sup>(1)</sup>.

تطور الحاجة إلى فهم وتفسير النص لغايات تشريعية، جعل التاريخ علماً مساعداً على غرار علوم اللغة وبخاصة النحو، فهناك جانب تاريخي في الاتصال بالنص إذ أنزل القرآن منجماً، وهذا يعني تغير الأحكام من العام إلى الخاص أو العكس، وهناك أحكام نسخت أخرى، مما يتطلب معرفة تاريخية بالنص لتحديد السابق بالقياس إلى اللاحق، وفي مجال تقسيم عائدات المجتمع على الأفراد، احتاج الأمر وفق المعايير التي وضعها عمر إلى معرفة تاريخية بالسيرة الذاتية للأشخاص في الإسلام من حيث درجة القدم والسبق في الإسلام والمشاركة في الغزوات والفتح، وارتبط بهذا لاحقاً وضع شجرة أنساب العرب، وفي عهد الدولة الأموية ونظراً للوظائف الحيوية لأشراف القبائل كقوة اجتماعية مؤثرة في ظل تنامي عدد الموالي، وحيث الانتساب للعرب كانت له فوائد اقتصادية واجتماعية لذا «البحث في أنساب العرب لم يكن إلا مجرد محاولة يستفيد منها أولئك الذين لا يملكون أية خلفية عربية، هنا، يمكننا الرجوع إلى أوضاع المجتمع الإسلامي المبكر، أو بالتحديد القرنين الأولين للإسلام، حيث كانت مسألة المعاشات والرواتب التقاعدية الممنوحة من الدولة مرتبطة إلى حد كبير بتحديد الدور الذي لعبه، أو لم يلعبه آباء وأجداد وكذلك أسلاف أي فرد من القبائل العربية في الفتوحات ... وذلك حتى تقدر مستحقته وراتبه التقاعدي»<sup>(2)</sup> والأمر نفسه ينطبق على تحديد حقوق وواجبات الجماعات التي خضعت للفتح، حيث كان من ضروري معرفة ظروف خضوع تلك الجماعات والبلدان لأن ذلك يتمخض عنه تفاوت في الحقوق والواجبات، تبعاً لطبيعة الفتح، صلحاً كان أم عنوة؟ و«من هذه المعلومات فقط نستطيع أن ندرك ونوضح مميزات التأليف التاريخي العربي. لا يهدف السرد إلى معرفة الماضي فقط، بل يهدف أساساً إلى تحديد حكم شرعي لصالح فرد أو جماعة، لهذا السبب كثر بين المؤلفين في التاريخ أول الأمر عدد الفقهاء»<sup>(3)</sup>، ومناسبة العلاقة بين التأليف التاريخي والتشريع، نذكر أن تشغيل وتوظيف القرآن والسنة كمصادر للتشريع بتطلب معرفة تاريخية بهما، يؤدي ذلك بأن يكون الخبر كمذكرة شاهد هو ما تقوم عليه الرواية وصدقها، وسيكون هناك تقاطع بين علم الحديث والتاريخ من حيث أن كلاهما في مرحلة ما يسلك نفس المسلك، الرواية والسند والاعتماد على عدالة الشاهد، وصولاً إلى المصدر الأول، الرسول بالنسبة للمحدثين، والشاهد المعين للحدث بالنسبة للمؤرخ، نقاط التقاطع هذه أغرت بالقول أن المؤرخ تابع ومقلد للمحدث ودارس ومؤرخ كبير «كهشام جعيط» يعكس هذا التوجه العام الذي طبع تاريخ ثقافتنا، إذ أن «الحديث وخلافاً للظاهر لاحق للتراث

1 كنيدي، هيو، الحياة خلال القرون الأربعة الأولى في الإسلام، ضمن المناهج والأعراف العقلانية في الإسلام، تح: فرهاد دفتري، ت: ناصح ميرزا، بيروت، لندن، دار الساقى ومعهد الدراسات الإسلامية، 2004، ص 54.

2 المرجع ذاته، ص 52، 51.

3 العروى، عبد الله، العرب والفكر التاريخي، ص 80.

التاريخي»<sup>(1)</sup>، خاصة في الجوانب أو المجالات التي لا تحظى بالقبول والإجماع وتتميز بالإلتباس كما يرى نفس الباحث، أي تلك التي بطبيعتها تاريخية كالسيرة والمغازي، ومن جهتنا نعتقد أن طبيعة الموضوع، موضوع علم الحديث والتأليف التاريخي، قد حددت سلفاً أوجه التداخل والتكامل بين منهج المؤلف التاريخي ومنهج المحدث، وأن كلاهما كان يخضع في حقيقة الأمر لمقتضيات المناخ الذهني للقرون الأولى للإسلام حيث الثقافة الشفاهية وما تقتضيه من رواية وسماع وحفظ، هذا من جهة ومن جهة أخرى يجب الاعتراف أن قسماً كبيراً من السنة ذو طبيعة تاريخية وأن عملية جمعها وتدوينها وترتيبها عمل مؤرخ قام به مؤرخون قبل أن يقوم به محدثون، مثل ابن إسحاق الذي تعتبر كتاباته في السيرة والمغازي الهيكل الذي قامت عليه بقية المصنفات في هذا العلم، خاصة سيرة ابن هشام، وكذلك الواقدي وابن سعد ثم البلاذري والطبري؛ ومع ذلك، ورغم هذا التداخل والتكامل إلا أن هناك مزايده من قبل المحدثين على المؤرخين تصل لدرجة التقليل من قيمة المؤرخين باسم علم الحديث وفروعه كعلم الرجال، فقد اعتبروا هؤلاء النقلة والرواة غير محترفين وغير محترزين في رواياتهم وأخبارهم كما يفعل المحدثون، الأسباب في ظاهرها تبدو مرتبطة بأصل أو جذر، عمل الرواة للحادثة التاريخية والراوي للحديث، فالأصل هنا هو الرسول ومن ثم فإن الشاهد والناقل يتوخى آلياً الصدق وإلا «يتبوأ مقعده من النار»<sup>(2)</sup>، ليس هناك ضمانات موضوعية عدا التعويل على حرمة وقديسية الأصل الملزمة أخلاقياً ودينياً لتوخي الصدق في النقل والرواية، بينما في الجهة المقابلة، جهة المؤرخين تخف درجة المسؤولية الأخلاقية والدينية ومن ثم نتوقع التساهل. لقد قال ابن حنبل «وهو من رؤس المحدثين» ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي وذلك لأن الغالب عليها المراسيل»<sup>(3)</sup>، هذه العلوم التي يرى ابن حنبل أن لا أصل لهل ولا جذر، معارف تاريخية بما فيها التفسير في نوعه المنقول، ليس من الصعب على المشتغل في تاريخ الأفكار، المذاهب والمدارس في إسلام العصر الوسيط، أن يستنتج أن هذا ليس إلا وجهاً من أوجه الصراع بين اتجاهات الرأي واتجاهات الحديث والنص، والتي لم تكن صراعات محض معرفية بقدر ما كانت تعكس صراعات في المواقع والتوجهات السياسية، فالمسكوت عنه في الأحكام القيمية للمحدثين التي أطلقوها بشأن زملانهم جامعي الأخبار والمؤرخين هو الحمولة السياسية والأيدولوجية للخبر التاريخي والذي يتعارض مع مضامين واتجاهات المحدثين السياسية، فقد اتهم أغلب الرواة والإخباريين بالتشيع، الواقدي، أبو مخنف، ابن إسحاق، نصرين مزاحم، هشام الكلبي ولا يستثنون من ذلك إلا الزهري لأنه محدث، وله موقعه في الدائرة السنية وسلطتها، وهذا العمل الدعائي والتبخيبي ارتفعت وتيرته في القرن الثالث والرابع، بعدما تصاعد صيت المحدثين كنتيجة من نتائج المحنة وكنتيجة من نتائج تغير توجهات مؤسسة الخلافة العباسية، بداية من خلافة المتوكل، ليخرج من دائرة المحدثين، حيث نجد صداه في تلك المصنفات التي من نوع المعاجم التي تؤرخ للسيرة الذاتية للفاعلين في مجال المعرفة، كالفهرست الذي كتب في حدود 377هـ اذ نجد تجريباً واضحاً لجامعي الأخبار والمؤرخين

1 هشام جعيط، الفتنة، ت خليل أحمد خليل، بيروت، دار الطليعة، ط6، 2008، ص156.

2 هذه صيغة مجتزأة من الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عن غير القرآن فليمح، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي معتمداً فليتبوأ مقعده من النار»

3 السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، بيروت، دار الفكر، 2011، ج2، ص551

فابن إسحاق «المطعون عليه غير مرضي الطريقة»، و«كان مخنف من سليم من أصحاب علي كرم الله وجهه»، أما الواقدي ف«كان يتشيع، حسن المذهب، يلزم التقية...»<sup>(1)</sup>، وقد تعرض الطبري إلى مضايقات الحنابلة، طالته حتى بعد وفاته، إذ دفن ليلا في صحن داره، كل هذا يدخل ضمن آليات الاستبعاد والمزاودة المحاكاتية ومن محاولة احتكار شروط صحة العلم التي مارسها المذاهب والمدارس والاتجاهات الفكرية.

إمعانا في ربط المعرفة التاريخية بالسلطة، أي بكون خطاب المعرفة التاريخية يشكل مجالا موضوعا للسياسة والسلطة، وتطور ذلك الخطاب وفق مقتضيات تطور المجتمع وإرادة الحقيقة التي حكمته، وإذا أخذنا الطبري كنموذج، والذي بلغت الكتابة التاريخية عنده «الذروة وعن طريق هذه الذروة الشامخة تتفرع نازلة معظم سفوح علم التاريخ عند العرب»<sup>(2)</sup>، فإن هذا التاريخ العام، يحتل فيه تاريخ القرن الأول مركز الثقل، لأن أحداث القرن الأول في الإسلام تحديدا تلك التي صنعت دراما الفتنة تشكل الرحم الذي ينسل كل تاريخية الإسلام، ففيه حدثت الفتنة بكل فصولها، وفيه قامت دولة السلالة الأموية، ونشأت المقاومات والثورات، ثورة الخوارج، وفيها تكون التشيع وكل التاريخ الدرامي المرتبط به، ولم يكد القرن الثاني يطل حتى نشأت الدولة العباسية لتتحول شروط وأطر إنتاج المعرفة تحولا كبيرا، هذا التزاما لأسماء الأبطال، الملاحم، القراء، العلماء، الخلفاء، الفتن والمحن، إنتهت وقد إنجلى غبار المعارك الدموية والفكرية إلى أحداث تقرأ مرتبة ومنقاة في كتاب «تاريخ الامم والملوك»، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. كيف تم تغطية هذه المسافة الزمنية -ثلاثة قرون- من أحداث الفتنة إلى الإخباريين إلى المؤرخين، وكيف ارتبط ذلك بتطور نظام الحكم وعلاقات القوى المشكلة للمجتمع العربي الإسلامي؟ الإجابة عن هذه الأسئلة منوطة بالعودة إلى الطبري من خلال استقصاء مصادره لرصد أهم المحطات النوعية وعلاقتها بتطور الأوضاع الاجتماعية، يربط «هشام جعيط» بين الفتنة الثانية (63هـ/73هـ) وظهور وعي تاريخي تمخض عن ظهور جيل من مجمعي الأخبار بصورة شفوية محضة، أصبح بعضهم متخصصا ومحترفا، النموذج المثالي لهذا الجيل ولهذا الوعي التاريخي، الشعبي 105هـ وقد اشتغل هذا الجيل في الفترة الواقعة بين 80هـ و120هـ «إن النظرة العامة إلى قاطرة الحوادث الكبرى ربما جرى جمعها وصوغها في الكوفة من قبل محترفي الذاكرة الجماعية الأكثر قدما، الذين لا يفصلهم سوى جيل عن الحرب الأهلية - الفتنة-»<sup>(3)</sup>، وفي مستوى ثاني، ظهر جيل ثاني من الرواة شكلوا جسرا بين جيل الشعبي وجيل سيف بن عمر، وهذا الجيل اشتغل في الفترة الممتدة ما بين 100هـ و140هـ، كانوا قبل عصر التدوين وسلموا موروثهم الشفهي إلى الجيل الذي شكل القاعدة والأساس لقيام تأليف عربي، جيل سيف بن عمر ت173هـ وأبي مخنف 157هـ، كجيل مدون وجامع للمادة التاريخية، وهؤلاء صنّفوا وكتبوا في الفترة الواقعة بين 120هـ و150هـ أي في عصر التدوين وعن هؤلاء، يأخذ الطبري مادته التاريخية.

وهكذا فالمسافة الزمنية التي تربط أحداثا هامة كالفتنة والإخباريين تقدر بقرن أو يزيد والمسافة

1 ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، تح ناهد عباس عثمان، (ب م)، دار قطري بن فجاعة، 1995، ص ص 173، 174، 194، 199.

2 أركون، محمد، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، ت هاشم صالح، بيروت، دار الساقي، 1997، ص 564.

3 جعيط، هشام، الفتنة، ص 152.

الزمنية التي تربط بين هؤلاء الإخباريين والمؤرخين الجامعيين كالطبري والبلاذري فتقدر بقرنين من الزمن، ورغم هذه المسافة الزمنية إلا أن المادة التاريخية منسجمة ومتواصلة، تنقل العالم الذهني لتلك القرون، وخاصة القرن الأول، الذي يبدو أنه رسم وأعيد بناؤه وحفظه بفعل هؤلاء الإخباريين الذين ظهروا في القرن الثاني للهجرة، كجسر عبر ويعبر من خلاله كل تراث الإسلام في خط متواصل إلى مرحلة اختبار المصادر، إجراء المقابلات بينها، الترجيح والانتقاء ثم دمج الروايات وبناءها وفق هيكل ومخطط عام تأسيسا لعلم التاريخ لأنه «لا علم إلا بالكلي» وهذا لتجاوز الكتابات الجزئية أي المتعلقة بأحداث متفرقة وبموضوعات مجزأة وأزمنة وأمكنة متباينة ومتباعدة، إنها محطة الطبري والبلاذري بكل تأكيد، ولكن لحظة الطبري والبلاذري ما كانت لتأتي لولا عمل هذا الجيل من الإخباريين «فبدونهم لا تاريخ إسلامي قط، ولا عملية أدلجة ممكنة في الأحزاب والفرق والمذاهب، وقبل ذلك، فلولا هذا الجمهور الضيق والمجهول أو شبه المجهول من الرواة الأوائل لروايات لا تزال شفوية، لكانت القطيعة التامة مع الماضي»<sup>(1)</sup>.

من الرواية إلى المنوغرافيات إلى التاريخ العام، القرن الأول قرن الروايات، القرن الثاني قرن المنوغرافيات، والقرن الثالث قرن التاريخ، هل لهذا التطور علاقة بنمط سلطة السلالة الأموية فالعباسية؟

لا شك ان الرواية الشفهية بطبيعتها تقوم على الاسترسال وعدم خضوعها لشكل وقالب محددين، حيث يمكن صياغتها على أكثر من شكل، فهي تفلت بطبيعتها من عقال المراقبة، أنها لا تنسب حتى لمؤلف بعينه يمكن أن يسأل عنها أخلاقيا وسياسيا، وإذا كانت هناك ظروف موضوعية لانتشار الثقافة الشفهية في القرن الأول فلا شك أنه من ضمن تلك الظروف والعوامل ماله صلة بالسياسة والشرعية، لقد أفرزت الفتنة ثلاث فرق سياسية، خوارج، شيعة وسلطة أموية، وكان الماضي، ماضي الإسلام خاصة بعد وفاة النبي محمد وأحداث الفتنة يشكل مرجعا تستمد منه كل القوى شرعية وجودها وتصوغ منها أيديولوجيتها التي تبرر إما المقاومة، الثورة والخروج أو تبرر التشبث بالسلطة، وعلى امتداد الحكم الأموي كان الصراع الأموي الهاشمي يظهر في شكل ثورات من فترة لأخرى، ولكنه صراع كان يدار بوسائل وأدوات ذات طبيعة معرفية وإيديولوجية بشكل متواصل، في شكل حرب دعائية، التلاعن، التنازع، اختلاق القصص ووضع الأحاديث التي تذكر بفضل معاوية وتحط من قدر وشأن كل المتنافسين، وفي مقابل ذلك ستتشكل الأدبيات التبجيلية والتي تضيي الطابع الدرامي على تاريخ الأئمة بداية من الفتنة الثانية -مقتل الحسين- وفي هذا السياق يشير الباحث «هشام جعيط» إلى ظاهرة انطلاق التدوين التاريخي من عقاله إبان، الحكم العباسي مع الجيل الثاني، جيل سيف ونصرو أبي مخنف، هذا الأخير كان بإمكانه وحسب سيرته الذاتية أن يكتب قبل 132هـ لكنه لم يفعل، ولابد أن ذلك مرتبط بالمراقبة، رقابة الدولة الأموية على التأليف التاريخي المرتبط بالفتنة والهاشميين «فالمسألة لا تتعلق بالمسافة الزمنية بقدر ما تتعلق بالمراقبة التي من الأقرب أن تكون الدولة الأموية قد فرضتها على استقصاءات كهذه تتصل بالسياسة اتصالا حميما، وبالتالي يمكن الافتراض أن الألسن والأقلام لم تنطلق إلا مع قيام السلالة الجديدة بأمر الخلافة لا شك أن العباسيين كانوا يشعرون بحاجة

1 المرجع ذاته، ص 157.

ملحة إلى تصحيح الرؤية التاريخية للماضي التي غيبها الأمويون تغيباً شديداً<sup>(1)</sup>، هذا التغيب طال أخباراً محددة، أسماء وجهات بعينها لأسباب سياسية، طال هذا التغيب كذلك، تاريخ وثقافات شعوب وقوميات دخلت الإسلام، بسبب مركزية السلطة الأموية في تسيير الأقاليم بالاعتماد على العنصر العربي، ولم تكن في نهاية القرن الأول للهجرة قد حدثت تغيرات أو تطورات نوعية في الصراع المذهبي، أي صراع القوى التي تشكل الخريطة المعرفية والسياسية للقرن الأول والثالث الأول من القرن الثاني عكس ما جرت عليه الأمور مع قيام السلالة العباسية، حيث احتاجت السلطة الجديدة إلى إثبات شرعيتها أمام منافسيها أمام أبناء عموماتهم الشيعة الطالبيين، وتغيير الاتجاهات والآراء وتصحيح الرؤى التي كانت قد نشرت وسادت إبان الحكم الأموي وذلك من خلال إعادة النظر في أيديولوجيا الإمامة وموقع مؤسسة الخلافة وإفساح المجال لشعوب غير عربية للعب دورها في الدولة ومؤسساتها، الجيش الإدارة، وفي المجال المعرفي راحت نخب غير عربية تعبر عن هويتها الثقافية بإحياء تراثها وتمجيده، وهكذا ترجمت الآداب السلطانية وسير الملوك، أي أنه بموازاة عملية التدوين كان ابن المقفع على سبيل المثال يدون في السياسة والأدب والتاريخ الفارسي، كما تم فسخ المجال لعرب الأطراف، عرب الجنوب والشمال وشرق الجزيرة للتعبير عن وجودها ومساهماتها في التاريخ العام لدولة الإسلام، وذلك من خلال أعمال «وهب بن منبه» و«هشام الكلبي»، «لقد اهتمت الخلافة بعد تجارب عديدة، خاصة أيام المتوكل، إلى سن سياسة تعايش بين الجماعات المتصارعة وذلك بإدماجها تدريجياً في حظيرة الدولة وبالمساهمة في استغلال الثروة والنفوذ، ومن عبارات ذلك الإدماج، من نتائج أيديولوجيا الوحدة والجماعة، توسيع نطاق التدوين التاريخي إلى ماضي الشعوب غير العربية»<sup>(2)</sup> كما نسجل إجراء آخر لدعم هذا التوجه الإدماجي، يتمثل في نقل عاصمة الحكم من مجال الشام إلى المجال العراقي والایراني، الكوفة ثم بغداد بعد أن تم بناؤها سنة 146هـ والتي بتأسيسها أصبحت مدينة عباسية خالصة غير مثقلة بالتاريخ كما هو الشأن بالنسبة للكوفة والبصرة، مدينة حيادية يمكن لكل الفئات والاتجاهات أن تبني لها تاريخاً جديداً فيها، وعلى الصعيد المعرفي وفي إطار استراتيجية الإدماج هذه بنت السلطة العباسية سياستها على الانفتاح أكثر على الاتجاهات الكلامية، المعتزلة بشكل خاص والفرق الإسلامية المعتدلة كالشيعة الزيدية، دون أن ننسى التطور الحاصل في المجال الاقتصادي، هذه التحولات تضافرت من أجل تحبيذ المصالحة المذهبية والعقائدية المختلفة ثم توسيع الفضول التاريخي بشكل خاص، وهكذا « تجلت القوة الاستيعابية والدمجية للمجتمع الجديد عن طريق الموقف العقلاني لحركة المعتزلة والأهمية المتزايدة للحزب الشيعي المعتدل»<sup>(3)</sup> ستعكس هذه السياسة الدمجية على مجال المعرفة وأنظمة إنتاجها، فعلى مستوى علم أصول الفقه، حسم الشافعي الصراع بين الرأي والحديث، ولاحقاً ونتيجة لسياسة المأمون ستأسس مدرسة بغداد ذات الطابع العقلاني في الكلام والنحو وفي التأليف التاريخي الذي أصبح مع الطبري نموذجاً للدمج والمصالحة بين المذاهب المختلفة ومصالح الجماعات المتنافسة، فقد أفسح المجال لتواريخ غير عربية للتعبير عن نفسها، وأفسح المجال لكثير من المصادر والروايات من هذه الجهة

1 جعيط، هشام، المرجع السابق، ص 154.

2 العروي، عبد الله، العرب والفكر التاريخي، ص 81.

3 أركون، محمد، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، ص 563.

ومن تلك، ومارس عليها جميعا عملية المقابلة والمقارنة والموازنة، يعلق حكمه في سياقات تاركا للقارئ حرية الاختيار، ويحسم ويرجح في سياقات أخرى حيث يترك لنفسه مجال الكلام «قال جعفر...» ومن المؤكد أن معرفته الموسوعية بمعارف وعلوم عصره، إذ كان مفسرا ومحدثا وفقهيا مجتهدا أسس مذهبا فقهيا قائما بذاته، قد انعكست على منهجه ومذهبه في التأليف التاريخي، إذ شكل تاريخه مجالا تتوزع فيه هذه المعارف -التفسير، الحديث، اللغة والأدب- مادة ومنهجًا، حيث يتيح الفرصة للمحدثين في السياقات التي تقتضي تدخلهم ويتيح الفرصة للإخباريين في سياقات أخرى، لذا كان تاريخ الطبري من وجهة «نظر التاريخ الإسلامي نفسه يمشي إلى أقصى حد في اتجاه التوفيق وتحقيق التناغم بين التراثين الشيعي والسني، لقد وصل في عملية المصالحة إلى حد لن يستطيع الفكر الإسلامي أن يتجاوزه»<sup>(1)</sup>.

وقبل أن نخرج من هذا النموذج، علينا أن نستغل الموقف للموقف على ثوابت التأليف التاريخي العربي، تلك الثوابت التي تشكل القاسم المشترك الذي يضم جميع المعارف إلى نظام فكري واحد. ويكون ذلك من خلال محاولة الإجابة على السؤال التالي: كيف يتمثل المؤرخ عامل الزمن بإبعاده، ماضي، حاضر، مستقبل؟ وبدون أن نغوص في تلمس المعنى لهذه المفاهيم في التأريخ العربي، كشكل من أشكال فلسفة التاريخ، نعرف أن الحوادث التاريخية بالنسبة للمؤلف التاريخي تحدث بشكل متصل، والإطار الزمني والمكاني لهذه الأحداث في كل زمان ومكان لا تخرج عن القيم الأخلاقية والدينية المتقابلة: خير/شر، سلب/إيجاب، إيمان/كفر، ظلال/هدى. فهي، أي، الأحداث إما أن تكون متطابقة مع الإرادة الإلهية أو متعارضة معها. التاريخ مجال معركة دائمة بين الحق والباطل، ومصير هذه المعركة محسوم لصالح الحق، انه تصور دوري دائري للتاريخ الخاضع للإرادة الإلهية، ولكن في محيط هذه الدائرة نقطة ارتكاز أو معلم لما قبل أو بعد، هذه النقطة تتمثل في تاريخ النبوة التي تشكل النموذج المثالي الأعلى، «مركز الثقل يوجد هنا في الوسط، لا في البداية كما عند بعض الشعوب القديمة ولا في النهاية كما في النظريات المهدوية، داخل وخارج الإسلام»<sup>(2)</sup>، هذه النواة أي السيرة بكل مراحلها، تتكرر بشكل أو بآخر في التواريخ الطبقيّة، أي تواريخ السلالات، العباسيون، الفاطميون، المرابطون، الموحدون...سيتمثلون هذا النموذج في بناء حركاتهم تاريخيا، أي جعل تاريخهم يعيد النموذج كقدوة وأسوة حسنة قد تم إعادتها مما يعطي لتلك الحركات كل الشرعية في الوجود على صعيد الزمن والتاريخ وعلى صعيد الواقع الاجتماعي والسياسي إزاء الآخر، فهذه، السيرة النموذج لا تروى كما يقول «العروي» مرة واحدة لأنها تنحصر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم «بل تتجدد في التواريخ الخصوصية لأنها تلعب دور النمط، أي البنية، الخفية التي تفعل وتبوب عليها تلك التواريخ المحلية»<sup>(3)</sup>.

هذا الإلحاح على استعادة هذا النموذج على صعيد التأليف التاريخي الطبقي والمرتبط بشكل مباشر بالسلالات الحاكمة، أي مرتبط بالسلطة وشرعيتها يؤكد مرة أخرى على قيمة السيادة العليا أو ذروة

1 أركون، محمد، المرجع السابق، ص 564.

2 العروي، عبد الله، العرب والفكر التاريخي، ص 85.

3 المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

المشروعية في إعطاء الشرعية، هذه السيادة العليا التي ظلت مستمرة ومراقبة للتاريخ والواقع بواسطة التشريع، تسم كذلك بواسطة الإبداع والتأليف التاريخيين بإعادة إنتاجها من خلال تمثل التاريخ النواة، تجربة المدينة المستودع التاريخي للسيادة العليا، وهكذا، فالصراع بين سفحي الثقافة العربية الإسلامية، الشيعة والسنة على السلطة هو صراع في المقام الأول على المشروعية، على السيادة العليا، ولذا ورغم الصراعات والاختلاف بينهما في كيفية الرواية وطرائق استخدام التاريخ، إلا أنهما يصدران عن نفس التصور لوظيفة التاريخ وعن نفس النموذج، لذا «يمكننا منذ الآن التأكد من الحقيقة التالية: ألا وهي أن كليهما يحرصان على قيادة العمل السياسي الحاضر وتوجيهه طبقا للتجربة الروحية والزمنية للنبي صلى الله عليه وسلم، وإذن فمثالهما الأعلى واحد على رغم من كل الاختلافات العقائدية والصراعات الدموية التي حصلت بينهما»<sup>(1)</sup>

سيطعم التأليف التاريخي لاحقا بالنزعة العقلانية والفلسفية، خاصة في القرن 4هـ مع مسكوبه كنموذج من خلال كتابه «تجارب الأمم» ورغم كل هذا التطور والتنوع ظل التاريخ «يخضع لهدفين: تسويغ شرعي كما رأينا لسلطة قائد الأمة، واستخلاص «مغزى» الحوادث الماضية لإنذار الناس كما يقول القرآن فيما يتعلق بالأعمال المفروضة والأفعال المحرمة»<sup>(2)</sup>

الأهداف السياسية المتمثلة في تبرير سلطة الخليفة العباسي أو مبرر الخروج والثورة لتنصيب شرعية جديدة، ناهيك عن الهدف الديني والأخلاقي، أي التاريخ كعبرة، هي الأهداف التي ظلت تؤطر التأليف التاريخي، ليظل التاريخ ينشد دائما زمنا نموذجيا يقع في الماضي ولكنه حاضر في التمثل العام أو في المخيال الاجتماعي، هذا الأخير، كان التاريخ ولا يزال يمثل أحد روافده الأساسية التي تغذيه، وبالتالي يبقى الاقتداء والرجوع دائما إلى أصل أو نموذج يشكل واحدة من ثوابت الثقافة العربية الإسلامية ولا يخرج التاريخ عن كونه معرفة «ترتبط بالأدب الواسع، أدب الاقتداء حيث تتأكد السمات الأكثر ثباتا في كل الفكر العربي الإسلامي»<sup>(3)</sup>.

الخطاب التاريخي وكما تم عرضه منذ نشأته كقصة وخبر إلى رواية و«منوغرافيات» إلى تاريخ عام في الجهة السنية من خلال نموذج الطبري يختزل الممارسة العلمية في إسلام العصر الوسيط حتى مشارف القرن 4هـ، والاختزال يعني هنا الصيغة الرياضية التي تحيد الكثرة والتنوع والتحول وصولا إلى ما لا يختزل أي إلى الجوهر أو البنية، وهكذا، تندرج المعرفة التاريخية ضمن التطور العام للمعرفة في الإسلام، من حيث ارتباط هذا الحقل المعرفي بالنص وبالسنة، والمؤلف التاريخي سيظهر بعد عصر التدوين، بعد أن يتسلم منوغرافيات كتواريخ مجزأة وغير مرتبة، والتي بدورها انبثقت من الرواية كقصة وخبر، فيتحد العالم على هذا المستوى كما في أي علم من العلوم البيانية، بكونه مدونا ومصنفا، أي جامع ومنظم لمواد معرفية في صيغة كلية تعطيها هويتها كحقل معرفي متميز، وفي هذا الإطار توضع شروط لصحة الخبر التاريخي على غرار شروط صحة العلم التي تؤسس «الحقيقة» «لا بإعتبارها ما يجب اكتشافه وجعل الآخرين يقبلونه،

1 أركون، محمد، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، صص 561/562.

2 أركون، محمد، الفكر العربي، ت عادل العوا، بيروت، دار المعرفة الجامعية، ط2، ص 103.

3 المرجع ذاته، ص 104

بل القواعد والشروط التي تقرر ماهو حقيقي»<sup>(1)</sup>، ذلك أن الصراع على صحة شروط العلم هو في الحقيقة صراع على امتلاك واحتكار المرجعية التي تبرر الحاضر، الحاضر السياسي والأيدولوجي، وهكذا شكلت «تجربة المدينة» في مرحلتها النبوية خاصة، بنية أو فمطا تحاول التواريخ الطبقية إعادتها، أي بناء تجربتها السياسية وفق ذلك النموذج إلتماسا وإثباتا للشرعية، هكذا فعلت كل السلالات التي حكمت في إسلام العصر الوسيط، وهكذا تفعل الآن كل الحركات الموصوفة بأنها إسلامية، الجهادية منها خاصة؛ لا يخرج التأليف التاريخي إذن عن أرضية فكرية تقف عليها جميع العقول المشتغلة على الساحة الإسلامية، أي الرجوع إلى سلطة مأذونة كائنة في الماضي.

#### المصادر والمراجع:

1. ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، تج ناهد عباس عثمان، (ب م)، دار قطري بن فجاءة، 1995.
2. السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، بيروت، دار الفكر، 2011، ج2.
3. أركون، محمد، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، ت هاشم صالح، بيروت، دار الساقى، 1997.
4. الفكر العربي، ت عادل العوا، بيروت، دار المعرفة الجامعية، ط2.
5. الشهرستاني، الملل والنحل، تصحيح وتعليق أحمد فهمي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، (ب ت) ج3.
6. الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، شرح وتخرير الشيخ عبد الله الدراز وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، (ب.ت)، ج2.
7. العروي، عبد الله، العرب والفكر التاريخي، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط4، 1998.
8. لكنيدي، هيو، الحياة خلال القرون الأربعة الأولى في الإسلام، ضمن المنهاج والأعراف العقلانية في الإسلام، تج: فرهاد دفتري، ت: ناصح ميرزا، بيروت، لندن، دار الساقى ومعهد الدراسات الاسماعلية، 2004.
9. هشام جعيط، الفتنة، ت خليل أحمد خليل، بيروت، دار الطليعة، ط6، 2008.
10. فوكو، ميشال، نظام الخطاب، ت محمد سبيلا، بيروت، دارالتنوير، 2007.

1 فوكو، ميشال، نظام الخطاب، ت محمد سبيلا، بيروت، دارالتنوير، 2007، ص94.